الصابئة

هم فرقةٌ من اهل الاديان اختلف العلمآء والمؤرخون في امرهم فقال قومٌ هم من عبّاد الكواكب وقال آخرون هم فرقةٌ بين النصارى والمجوس وهو احد اقوال البيضاوي وقال الزمخشري هم قومٌ عدلوا عن دين النصارى واليهود وعبدوا الملائكة وقيل غير ذلك مما يطول بيانهُ وكلهُ من باب الظنّ لانهم يكتمون دينهم اشدّ الكتمان ولا يرون دخول الناس فيهِ وانما هم على مذهب من قال جرى القلم وأُغلق الباب · وقد اتى على هذا السرّ قرونٌ عديدة لم يُهتَك لهُ سترٌ ولا استشفّ احدٌ ما ورآءهُ والناس فيهِ واقفون عند حد التكهُّن والظنونُ تطلع الى مكنون امرهم وتتطالّ الى ما ورآء ذلك الحجاب وهم لا يحصلون على طائل الى ان وُفّق الى كشفهِ احد مواطنينا الاعزّآء وهو السيّد نقولا السيوفي من جلّة اهل دمشق حين كان وكيلاً لدولة فرنسا بالموصل وقد اقام هناك عدة سنين متوالية تسنّى لهُ في خلالها الوقوف على دخلة امرهم وتفاصيل مذهبهم وتأريخ نشأتهم فدوّن جميع ذلك في سفرٍ فرنسويّ العبارة يبلغ نحوًا من ٢٠٠ صفحة طُبع في مدينة باريز سنة ١٨٨٠ · ولما كان كشف مثل هذا السرّ البعيد مما يهمّ المطالع الوقوف عليهِ آثرنا ان نلخّص شيئاً من السفر المشار اليهِ ننشرهُ بين ايدي قرّآئنا الكرام فنقول

تعتقد الصابئة وجود عالمين في الارض احدهما العالم السرّيّ ويسمّونهُ « مشوني كوشتو » وهو قُطرٌ فسيح اكبر من القُطر الذي نسكنهُ نحن الآ ان مكانهُ مستورٌ عنا وهو اشرف من عالمنا المنظور بحيث يُعَدّ منهُ بمنزلة اليمين من اليسار · وسكان هذا العالم جميعهم من الصابئة وهم بشرٌ مثلنا الآ انهم منزهون عن كل وصمة ولذلك ينتقلون بعد موتهم الى عالم الأنوار الذي يسمّونهُ « عولمي

دونهورو » وهو مقام التعيم من غير أن يمرّوا بموضع من مواضع العذاب . والعالم الثاني هو عالمنا هذا ويسمونهُ « اوردو تيويل » اي الارض المشتراة وهو في موضع دون العالم الاول

ولكلٍّ من هذين العالمين آدم مخصوص ويقال لآدم العالم السرّيّ « آدم كاسيا » اي آدم غير المنظور وتسمّى زوجهُ « كانونا » اي تامّة الجمال . وآدم الآخر الذي هو ابو سُلالتنا يقال لهُ « آدم جاورو قدمويو » اي آدم الرجل الاول وزوجهُ تسمى « حوّآء »

وكان لكلٍّ من هذين الآدمين بنتٌ فجمع بينهما « هيول زيوو » في العالم المنظور وأزوج كلاًّ منهما من ابنة الآخر ثم ردّ آدم غير المنظور الى العالم السرّيّ حيث كان قبل ذلك . والصابئة يزعمون تبعاً لما في كتبهم انهم من ابناء آدم غير المنظور وابنة آدم المنظور الا ان علمآءهم يخالفونهم في ذلك لانهم يستبعدون الخروج من العالم السرّيّ الى العالم المنظور ومع ان هذه المسئلة غير قائمة عندهم في مقام القطع فهم اليوم يقولون بقول علمآئهم اي انهم من سلالة آدم المنظور

اما تسميتهم بالصابئة[1] فيقولون انهُ اسمٌ سمّاهم بهِ من يجاورهم من النصارى والمسلمين وهم يسمون انفسهم « المندايا » اي الاقدمين

اما دين الصابئة فيزعمون انهم على دين نبيّهم يحيى وهو يوحنا المعمدان

---

١ ان كانت هذه التسمية عربية فاشتقاقها من صبأ اذا خرج من دين الى اخر قيل سموا بذلك لانهم عدلوا عن دين النصارى واليهود على ما تقدم قريبا . وزعم ليتراى انهم سموا كذلك نسبة الى سبأ وهي مدينة مأرب باليمن وانما اختلط عليه لفظ الصابئين بالسبئيين وهم الوارد ذكرهم في نبوة اشعياء (٤٥ : ١٤) ومواضع اخر من التاريخ القديم وشتان بين اللفظين

وهو عندهم فوق عيسى منزلةً ومولدهُ غير طبيعي . وعندهم عدة كتب مُنزَلة منها ما أُنزِل عليهم من عالم الانوار (عولي دونهورو) واشرف هذه الكتب كتابٌ يسمى « درَوشاديحيا » اي اقوال يحيى وهو يتضمن سيرة حياة يحيى وبعض السنن الدينية من نحو المعمودية وخُطَباً تعليمية فيما يتعلق بخلاص النفس والسعادة الاخروية

اما مولد يحيى فهو قريبٌ مما ورد حديثهُ في الانجيل قالوا وكانت الصابئة عند مولدهِ قد انقرضت من العالم بتةً لان اساقفهم وكهنتهم كانوا قد ماتوا كلهم فبقوا من غير هادٍ ثم اختلطوا ببعض طوائف اليهود من غير اهل الختان فأشربوا عقائدهم ومذ ذاك انقطع الوفد عن عالم الانوار وهو دار النعيم فاستوحش اهلهُ ورفعوا امرهم بالشكي الى « مورو دَربوتو » فاستحضر لوقتهِ « مندودايي » احد الثلاث مئة والستين شخصاً السماويين وامرهُ بتدارُك هذه الثلمة فجاء باناء فيهِ ماء وتلا عليه كلماتٍ سرية ودفعهُ الى واحدٍ من الملائكة وامرهُ ان ينطلق الى « اينوشوي » وهي أُمّ يحيى ويتلطف في الاحتيال بحيث تشرب منهُ دون ان تعلم ما فيه فارتسم الملَك امرهُ وهبط الى اينوشوي وجعل الاناء بين يديها وادركتها عطشةٌ فاغترفت من ذلك الماء في حفنتها وشربت منهُ فحملت لوقتها . ولما كانت الليلة التالية رأى احد اليهود في حلمهِ ان اينوشوي قد حملت وان الولد الذي ستضَعهُ سيكون زعيماً على الأُمّة ويدين اليهود لامرهِ وانهُ سيعمّدهم ويسقيهم ماء « المبوها » وهو الماء الذي يسقيهِ كاهن الصابئة لكل معتمد . فلما اصبح اليهودي صار الى العازار رئيس ملّتهِ وقصّ عليهِ حلمهُ فانطلق العازار حتى لقي أبوصادا وهو زوج اينوشوسيه وأعلمهُ ان زوجهُ حامل فانكر ابوصادا ذلك وقال كيف يكون هذا وزوجي عجوزٌ كبيرة ولم تحمل قطّ مذ كنّا معاً . فحشد

العازار اعيان اليهود وقصّ عليهم الامر فاخذوا قَصَص الحلم وانفذوا بهِ الى معبّر للأحلام مشهورٍ بالحذق والاصابة فكان تعبيرهُ مطابقًا لتعبيرهم فعزموا على ان يتربصوا باينوشوي ان تَضَع جنينهـا فيقتلوهُ عند ولادهِ . ولما جنّ الظلام قدم ابوصادا على العازار ليفاوضهُ في الامر فرأى العازار ابوصادا داخلًا وبين يديهِ قَبَسان من نورٍ ساطع وورآءهُ مثلهما فقال العازار ما هذه المصابيح الاربعة التي حولك فقال لا ادري انما هي المرّة الاولى التي ارى فيها ذلك وأجهل من أين جآءتني هذه الانوار وكانت مصاحبةً لهُ طول التسعة الاشهر التي كانت امرأتهُ فيها حبلى

وبعد أن اتى على اينوشوي تسعة اشهر وتسعة ايام وتسع ساعات وتسع دقائق من حين الحبل اخذتها اوجاع الطلق[1] فاجتمعت حولها نسآء اليهود بالأمر السرّيّ الذي تلقّينهُ من قِبَل الرؤسآء ليقتلنَ الطفل عند مولدهِ . الا انهُ لم يتمّ لهنّ ذلك لان « زهريئيل لالاتو » وهو روحٌ موكّلٌ بالمواليد وهو الذي يدير رأس الجنين من فوق الى اسفل قبل الولادة اخذ الولد بأن اخرجهُ من فم أُمّهِ وجعلهُ بين ايديـه الملائكة فاخذوهُ الى عالم النور الذي هو الفردوس وهناك شجرةٌ تسمى « محزيون » على اغصانها ثُدِيٌّ كثيرةٌ حافلة باللبن اذا مات احد الصابئة طفلًا بعد المعمودية وقبل ان يستوفي رضاعهُ جُعِل عليها فرضع من تلك الثديّ . فنشأ هذا الغلام الذي هو يحيى في الفردوس واعتمد هناك باسم « إلاها ومورو دَّربوتو ومندودايي » وهذا الاخير هو ابوهُ الذي تلا الكلمات السرّية على المآء الذي سُقيتهُ امهُ على ما تقدم حديث ذلك ولذا كان يحيى

---

١ وكذلك يقولون في حبل مريم بعيسى زعموا ان الله اراد ان يميز يحيى وعيسى عن سائر البشر فجعل مدتهما في البطن زيادة على تسعة اشهر

في زعمهم يعمد باسم هؤلآء الثلاثة

ولمّا حان انفاذهُ لإمضآء الرسالة في العالم السُفليّ وسنّ الشريعة الصابئية تلا عليهِ اهل العالم السعيد كلمات سريّة صار بها ممتنعاً على النار والمآء والسلاح وسائر انواع الآفات وعلّموهُ كلماتٍ أُخر اذا نطق بها ادرك ما شآء وفعل كل ما اراد ثم سلموهُ الى عهدة واحدٍ من الثلاث مئة والستين يقال لهُ « انوش اوثرو » وأمروهُ ان يصحبهُ الى العالم السفليّ فركبا زورقاً من الذهب وهبطا الفرات قاصدَين اورشليم حيث كانت عشيرة يحيى والصابئة تزعم ان الفرات كان في الزمن الاول يجري الى اورشليم وانهُ ينبط من تحت عرش « أواثار » وهو مالك يوم الدين وعرشهُ تحت نجم القطب

وفيما كان يحيى راكباً الفرات صادف خادمة بيت ابيهِ على احدى ضفّتيهِ وقد جآءت تستقي فعرفها وجعلت هي تتأملهُ لانها وجدت فيهِ ملاح من عشيرتهِ فعرف يحيى ما يتخالج في صدرها فقال لها هلمّي الى المدينة واستخبري عن عِترةِ اضاعت طفلاً فَعَدَت الجارية لساعتها وأخبرت مولاتها بما كان فقالت اني رأيت فتًى اجمل من البدر ليلة تمهِ واعادت عليها قولهُ ووصفت لها ما بينهُ وبين مواليها من المشابه فوقع هذا النبأ من اينوشوي موقعاً ادهشها فرحاً فنهضت لساعتها وبادرت عَدْوًا لملتقاهُ وقد ذهلت عن ان تتقنّع على ما جرت بهِ العادة عندهم فلما رآها بعلها خارجةً كذلك استشاط من الغضب وهمّ بطلاقها فلم يشعر الّا بصحيفةٍ قد سقطت بين يديهِ فتناولها فاذا فيها هذه الكلمات اياك وان تسوء امرأتك بأمرٍ ولكن هلمّ في اثرها فانها ذاهبةٌ للقآء يحيى فنهض وتبعها ولبثت اينوشوي ساثرةً حتى ابصرت ولدها في الزورق فألقت بنفسها على عنقهِ واحتضنتهُ قبّل رأسها

وبعد ان وصل به انوش اوثرو الى اورشليم وكّل بحفظهِ الشمس والقمر على انهما مسؤولان عن كل اذًى يلحقهُ وانقلب عائدًا الى عالم الانوار . واقام يحيى باورشليم يعمّد ويصنع الآيات فشفى ذوي الزمانات وأبرأ العميان وأقام المقعدين وكان يضرب الواحد منهم بصولجانهِ فينهض قائمًا وشفى كل ذي مرضٍ بنضح الماء فلم يؤمن اليهود بهِ وأحرقوا عليهِ منزلهُ الاّ أن النار كانت عليهِ بردًا وسلامًا فضربوهُ بأسلحتهم فلم تعمل فيهِ فلما رأوا ذلك آمنوا برسالتهِ ما خلا العازار وأشياعهُ واعترفوا به زعيمًا عليهم وهم لا يبرحون في طاعة خلفائهِ من الاساقف والكهنة الى يومنا هذا

وبعد أن قرّر شرائع دعوتهِ بينهم خرج الى عُدوة الأُردنّ فعمّد هناك « ايشوعشيحو » اي عيسى المسيح ابن خالتهِ وغاص بعد ذلك في الصلوات يصِل فيها ليلهُ بنهارهِ وكان اول مسئلةٍ ابتهل بها الى الله ان يصونهُ من حبائل النساء لعلمهِ بما كان عليهِ من محاسن الخلق وجمال الصورة فكان على الدوام يخاف فتنتهنّ وقضى حياتهُ متبتلاً واقتدى بهِ سائر اتباعهِ من الصابئة فكان اكثرهم يقضون دهرهم أعزابًا

ولبث الصابئة على ذلك زمنًا مديدًا يمتنعون من الزواج فقلّ بسبب ذلك عديد الانفس الواردة منهم الى الفردوس فساء ذلك سكان الفردوس فعجلوا برسالةٍ الى يحيى يذكرون لهُ ما نشأ عن الاقتداء بسيرتهِ من العواقب السيئة في امر التبتل وقالوا لهُ انك بتبتلك ستفضي بالصابئة الى الفناء والاضمحلال وبُمامنا الى الوحشة والخلاء فخفّف عليك من صلواتك وارفق بنفسك واتخذ لك امرأةً تقضي معها بعضًا من ساعاتك فعل ومذ ذاك عادت الصابئة الى الزواج واخذ كهنتهم ايضًا يتزوجون

ولما قضى يحيى رسالتهُ وكانت مدّتها اربعاً واربعين سنةً احسّ بدنوّ اجلهِ فدعا زوجهُ وجرى بينهما الحديث الآتي

قال يحيى اذا انا متّ فما انتِ صانعةٌ من بعدي

قالت انقطع عن الطعام والشراب تعجيلاً لأجلي حتى اذهب وأنضمّ اليك

فقال يحيى بل ستأكلين وتشربين ثم لا تخطريني ببالك

قالت سأعتزل الغُسل ولا اضفر شعري ما بقيت حتى اذهب وأنضمّ اليك

فقال يحيى انكِ لن تُمضي ما تقولين بل ستغتسلين وتضفرين شعركِ وأصير عندكِ نِسياً منسيًّا

قالت سأقطع في خبآئي لا أرى انسيا الى ان اموت وانضمّ اليك

فقال يحيى بل ستنقادين لإلحاح ذوي القرابة والاصدقآء فيخرجونكِ من خبآئكِ وتسلينني

فقالت وماذا عساني ان ازيد على ذلك

قال كلّ ما تكلمتِ بهِ انما هو خفّةٌ ورعونة وايّايَ لا يجديني قيلاً لكن اذا متُّ فخير ما تصنعين ان تبتهلي في راحة نفسي وتذبحي الغنم وتدعي الاساقف والكهنة فيصلوا عليّ وانتِ فابقي على بشاشتكِ واطلقي صوتكِ عليَّ بالفرح لا بالويل ولا تنسيني . اه

ولذا فان الصابئة الى اليوم يكونون في يوم المأتم أفرح من يوم الزفاف والتحزُّن محرَّمٌ عليهم ويقولون ان كل دمعةٍ على الميت تصير نهرًا كبيرًا في طريق نفسهِ تكاد تعجز عن قطعهِ . على انهم كثيرًا ما يتسامحون في هذه السنّة الاّ اذا كان المتوفّى اسقفًا او كاهنًا فلا يجوز لنسآئهِ ان يجرينَ عليهِ دمعةً البتّة

ولما تمّ يحيى كلامهُ مع امرأته حضرهُ مندوداي ابوهُ الالهي فتمثل لهُ

بصورة فتًى يسأله المعمودية فواعده يحيى الى الغد . ولما كان من الليل عاوده الفتى وهو يصلي فظنّ انهُ يريد ان يتعلم منهُ الصلاة فمضى على صلاتهِ فتناول الفتى النعاس بيديهِ وقذف بهِ على يحيى فنام قبل ان يُتمّ صلاتهُ ثم تضرّع الى الله ان يجعل ذلك الليل ثُلُثًا اي ان لا يزيد على اربع ساعات فاستجاب الله دعآءهُ وبعد اربع ساعات من مغيب الشمس عادت فاشرقت فهبّ يحيى على عادتهِ وانطلق ناحية النهر فاغتسل ثم قام يصلي . ولمّا فرغ من صلاتهِ حضرهُ الفتى وسألهُ ان يعمّدهُ فنزل يحيى في النهر وأمرهُ باتباعهِ فلما صارا في المآء ارتفع المآء فوق عادتهِ حتى غمر منكبي يحيى فتراجع الى البرّ فأسرَّ الفتى الى المياه ان تتراجع فرجعت وبقي يحيى على اليبس فعاد الى المآء وأمر الفتى باتباعهِ فلما دنَوا من المآء عاد فارتفع فتراجع يحيى الى الورآء وتكرر ذلك ثلاث مرّات وفي الرابعة لم يرتفع المآء لان مندودايي امرهُ سرًّا بالوقوف . وبينما هما في المآء اذا السمك كلهُ قد ظهر بلونٍ ابيض ناصع واجتمع حولهما وهتف بصوتٍ واحد تبارك اسمك يا مندودايي وللحال اجتمع طير السمآء عند رأس الفتى وهتف بالكلام نفسهِ وكان يحيى قد أُوتي ان يفهم لسان الاسماك والطيور ففهم ما قلنَ واساعتهِ اخذ بطرف النصيف الذي كان على مندودايي وقبّلهُ قائلاً انت مندودايي . وعند ذلك خلع الفتى جثمانهُ البشريّ وظهر ليحيى بمظهرهِ السماويّ محفوفًا بالجلال والبهآء فاخذ يحيى بيدهِ فزجرهُ وقال لا تَمَسَّ يدي فانك حالما تمسّها يفارق روحك جسدك فقال يحيى هذا ما اتمنّاهُ فاني اودّ ان اموت لأفضي الى عالم الأنوار في صحبتك ولا انطلق اليهِ في صحبة سوريئيل وهو مَلَك الموت عندهم

فعند ذلك خرجا كلاهما من النهر ولما صارا على الضفّة اعطى مندودايي يدهُ ليحيى فسقط جسدهُ للحال ميتًا ورجلاهُ في المآء وسائر جسدهِ خارجهُ

ولحقت نفسهُ بمندودابي . وبينا هما منطلقان في العنان التفت روح يحيى الى الارض فباين جثتهُ يأكلها السمك من جانب والطير من جانب آخر فلما رأى ذلك تنهّد فقال لهُ مندودابي ما بالك تتنهد ألعلّك آسفٌ على الحياة التي فارقتها فقال يحيى نقدّس اسمك اني اتنهد لاني خلفت ورآئي صغارًا لم أُتمّ كفالتهم وانما قال ذلك لانهُ كره ان يبوح لهُ بباطن بثّهِ فقال ليس هذا ما يحزنك انما حزنت لما رأيت من حال جثتك فلتكن مطمئنًا اني ساجعلها في حرزٍ مما ساءك ثم تناول قبضتين من التراب فحثاهما فوق الجثة فكانتا قبرًا لها ومذ ذاك صار الصابئة يدفنون موتاهم وكانوا منذ عهد آدم الى ذلك اليوم لا يعرفون الدفن ومضيا في طريقهما حتى انتيا الى « نهرو دكشوشو » وهو النهر الحائل بين « مَتَرُوثوس » وعالم الانوار لا تَصِل نفسٌ الى مقيل سعادتها الاّ باجتيازهِ فجآءهما زورقٌ فركباهُ وعبرا النهر ودخلا من هناك عالم النور حيث استقرّ يحيى في مقامٍ كريم في قصر مندودابي ابيهِ السماوي . اه

هذا مجمل ما جآء في امر هذه الطائفة اقتصرنا فيهِ على بيان نشأتها وأصل معتقدها وبقي القول في تفاصيل مذهبها وقواعد دينها وهو امرٌ يطول شرحهُ ولا يتسع لهُ هذا المقام ولذلك تجاوزناهُ الى موعدٍ آخر ان شآء الله

من كلام الشاطبيّ اشتغالك بوقتٍ لم يأتِ تضييعٌ للوقت الذي انت فيهِ

قيل لبِشرٍ الحافي بأيّ شيء تأكل الخبز فقال أذكر العافية فأجعلها ادامًا

(في الحديث) انصر اخاك ظالمًا او مظلومًا . قيل كيف ينصره ظالمًا قال صلى الله عليهِ وسلم يمنعهُ من الظلم (الكشكول)